حكايات غيرت الدنيا



محسن محمد محسن

الطفل والغزال الجريح

١

تَبدأُ حِكايتُنا فى النِّمسا ، وتنطَلِقُ إلىَ ما لا نِهايَة .

وهِىَ ليستْ حِكايةً واحِدَة ، ولَكنَّها عِدَّةُ حِكايات .. حِكاياتٌ ستَستَمرُّ وتَعيش طالَما عاش على وجهِ الأرضِ إنسان .

إنَّها قِصَّةُ كَفاحِ الإنسانِ فى سَبيلِ البقاء .. وهى بذَلكَ حكايةُ كُلِّ واحِدٍ مِنَّا .

بدأتِ الحِكاية .. حكايةُ الإنسانِ مع غيرِه منَ المخلوقاتِ علىَ الأرض ، منذُ بدأتِ الخَليقة ، فهى كما قُلنا قصَّةُ الكِفاح فى سَبيلِ البقاء .

ومن بينِ هذه الحِكايات ، حكايةُ الطِّفلِ الصَّغيرِ « فِنْسِنْز بريسْتِنزْ » .. هو طِفلٌ صغيرٌ مثْلُكم تَماما ، لا يَختلفُ عنكم فى شَىء . عاشَ مع أُسرتهِ فى قرْيةِ « جرافِنْبِرْج » بالنِّمسا ، وكانتْ مشاهِدُ الجَمالِ الَّتى أبدعَها الخالقُ سُبحانَه وتَعالى ، تُحيطُ بهذهِ القَريَة الصَّغيرة . وكانَ بَطلُ حكايتِنا الصَّغيرُ يُحبُّ الحياةَ ، ويُحبُّ ما أَبدعَهُ الخالقُ فيها . وكانَ ـ كأىِّ طِفْلٍ ـ مُتَفتِّحا للحَياةِ والمَرَح ، يخرُجُ كلَّ يَومٍ إلَى التِّلالِ الخضراءِ الَّتى تُحيطُ بقَريَتِه ، يُمتِّعُ عيْنيهِ بِما أبدعَهُ الخالقُ من جَمال ، فى الغابةِ ذاتِ الأشجارِ الباسِقَة ، والنَّباتاتِ العَجيبَة،والحيواناتِ الطَّليقَة ، ويلْعبُ فى انطِلاقٍ وسَعادة ، حوْلَ نبعِ ماءٍ جارٍ فوقَ أحدِ التِّلال .

وذاتَ يوم ..

كانَ « فِنْسِنْز » الصَّغير ، يلعبُ كعادَتِه عِندَ نَبْعِ



(الطفل والغزال الجريح)

الماء ، عندَما رأَى غزالًا جريحاً يعرُجُ فى مِشْيتِه نحوَ النَّبع ، فاختبأَ « فِنْسِنْز » وراءَ إحدَى الأشجار ، وراحَ يُراقبُ الغَزالَ . وتعجَّبَ « فِنْسِنْز » عِندَما رأَى الغزالَ يجُرُّ ساقَهُ الجَريحَةَ فى صُعوبة ، ويَغمِسُها فى النَّبعِ تحتَ المِياهِ المُتدَفِّقَة . وبَقِى الغزالُ كَذلِكَ مُدَّة ، تارِكاً المِياهَ تَغمُرُ جُروحَه . ولاحَظَ الطِّفلُ أنَّ الغزالَ ارتاحَ لِما فعَلَه ، فكفَّ عنِ التَّوجُّعِ والأنين ، ثم سحَبَ قدَمهُ مُبتَعِدًا عنِ النَّبع . كما لاحظَ الطِّفلُ أنَّ الدَّمَ الذَّى كانَ ينزِفُ من قَدمِ الغَزالِ توَقَّف .

وانصرَفَ الطِّفلُ إلى اللَّعِب ، ناسِيًا حِكايةَ الغَزالِ الجَريح ، ثمَّ عادَ إلى مَنزِله يتناوَلُ طعامَه .

ولمَّا كانَ « فِنْسِنْز برِيسْتِنْز » قد تعوَّدَ على اللَّعبِ فى نفسِ المكانِ كلَّ يَوْم ، فقَدْ تعجَّبَ عِندمَا رَأَى الغزالَ الجريحَ نَفسَه ، يعودُ إلَى النَّبع فى اليَومِ التَّالى .

فاختبأَ بسُرعةٍ كما فعلَ من قبل ، وأدْهَشَه أن

يرَى الغزالَ يفعلُ مِثلما فعلَ بالأمس ، فيغْمِسُ قدمَه فى المِاء المُتدفّق ..

وظَلَّ « فِنْسِنْز » يذهبُ إلَى النبعِ كلَّ يوم ، ويَختبىءُ وراءَ الشَّجرة ، ويرَى الغزالَ وهو يجىءُ إلى النَّبع ، ويفعلُ نفسَ الشَّىء . إلَى أن جاءَ اليومُ الَّذى انقطعَ فيهِ الغزالُ عنِ الحُضور ، فعلِمَ الطِّفلُ أنَّهُ قد شُفِىَ من جِراحِه .

وفى نفس ذلكَ اليوم ، بينما « فِنْسِنْز بريستِنْز » يَعودُ إلى منزِلِه بالقَرية ، كانتْ تنتظِرُه عَلَى الطَّرِيق مُفاجأةٌ أليمَة . فبينما كانَ يعبُرُ الطَّريق ، ويُفكِّرُ فى الغَزال ، وكيفَ شُفيتْ جِراحُه من الماءِ القَراح ، دونَ أىِّ عِلاجٍ آخر ، إذْ دَهَمتْهُ عربَةُ البَريد المُنطلِقَة بسُرعة ، وهُو شاردٌ عنها ، فهشَّمتْ أضلاعَه ، وطرحتْهُ على الأرضِ فاقِدَ الوَعْى .

وحمَلَ المُتجمْهرونَ الغُلامَ إلى منزِلِ أُسرتِه

المَنكوبَة ، حيثُ قرَّر الأَطِبَّاءُ أَنَّهُ لن يُشفَى أبَدا ، وأَنَّه لوْ شُفِىَ فبمُعجزةٍ إلهيَّة ، إلّا أنَّه سيعيشُ بقيَّةَ عُمرِهِ بعاهةٍ مُستديمة .

* —— *

ومرَّ أُسبوعٌ والُغلامُ راقدٌ فى سَريرِه دونَ حَراك ، بينَما أُمُّهُ المِسكينَةُ تُحاول بينَ وقتٍ وآخرَ أن تَسقِيَهُ كوبًا منَ العَصير ، حتَّى لا يَموت ، وهىَ ساهرَة تبكى إلَى جِوارِ فِراشِه ، وتدعو اللّهَ أن يرحَمَ طِفلَها ، ويرحَمَها معه .

وفى غَمْرةِ الألمِ الشَّديد ، فتحَ « فِنْسِنْز » عيْنَيه ، ونظر إلى أُمِّه ، فرفعتْ يَديْها إلى السَّماءِ فَرحَى ، وشَكرتِ اللّهَ أنِ اسْتجابَ لدُعائِها .

واقترَبتْ من ولَدِها ، وسألَتْهُ فى لَهفَة :

ـــ ماذا تُريدُ يا صَغيرى ؟

كانَ « فِنْسِنْز » رغْمَ آلامِه الشَّديدَة ـــ لا سِيَّما وهو

صَبِىٌّ صَغير – لا يزالُ يُفكِّرُ فى الغَزالِ الجَريح ، فأجابَ بصوْتٍ خافِتٍ لا يكادُ يُسمَع :

– أريدُ ماءً بارِدًا كثيرا .

وتحرَّكَ الصَّبىُّ فى فِراشِهِ بقُوَّةِ إرادةٍ عَجيبة ، ممَّا جعلَ أُمَّهُ الَّتى جاءتْ بالماءِ البارد ، تصرُخُ منْ خوفِها علَيْه ، ولكنَّه طلبَ مِنْها أنْ تنقَعَ الأَربِطَةَ فى ذلكَ الماءِ البارد ، ثمَّ تَربِطُها وهى مُشبَّعةٌ بالماءِ حولَ صدرِهِ .

وما أن فعَلتْ أُمُّه ذلك ، حتَّى راحَ الصَّبىُّ فى نَوْمٍ عَميق .

وفى اليومِ التَّالى كرَّرَ الصَّبىُّ ما فعلَه بالْأَمس ، ثمَّ واظَبَ على ذلك شهْرًا كامِلا ، تماثَلَ بعدَهُ للشِّفاء ، تمامًا مِثلَما حدثَ لِلغزالِ الجَريح . وتسامعَ النَّاسُ بالنَّبأ ، وتعجَّبوا منْهُ غايةَ العَجب .

ولم تمضِ على شِفاء « فِنْسِنْز » أيَّام ، حتَّى سقطَ

عُمدةُ القَريةِ من علىَ صَهْوةِ جوادِه ، وكُسرتْ ساقُه ، وضلعٌ من أضلاعِه .

وذهبَ « فِنْسِنْز » لزِيارَتِه ، ثمَّ راحَ يُعالجُه كما عالجَ نفسَه ، فخفَّفَ عن العُمدةِ آلامَه ، وما زالَ يتردَّدُ عليهِ حتَّى شُفِىَ تماما ، وخرجَ يُمارسُ عمَلَه مرَّةً أخرَى .

ومن تلِكَ اللَّحظة ، عرفَ الصَّبىُّ « فِنْسِنْز » أنَّ الكَمّاداتِ البارِدَةَ ـ والسَّاخنةَ كذلك ـ لها أثَرٌ كبيرٌ فى شِفاءِ الجُروحِ والكُسور . وراحَ الصَّبىُّ يعودُ المُصابينَ بمثلِ حالتِه فى قريَتِه والقُرَى المُجاورَة ، دونَ أن يكسِبَ شيْئا من وراءِ ذلك . وقد شُفِىَ الكَثيرونَ بطريقتِه المُبتكرة ، حتَّى أُطلقَ عليهِ النَّاسُ لَقبَ القِدّيسِ الصَّغير .

وبدأَ الأَطِبَّاءُ فى قرْيتِهِ والقُرَى المُجاورَة ، يُهاجِمونَ الصَّبىَّ ويتَّهِمونَه بالسِّحرِ والشَّعوذَة ، إلَى أن أعلنَ واحدٌ

منهم لِلجميع ، أنَّ الصَّبىَّ برىءٌ مِمَّا نُسب إليه ، إذ قامَ هو نفسُه بتَجربَةِ العِلاجِ بالكَمَّاداتِ البارِدةِ والسَّاخنة ، ونجحَ فى شِفاءِ حالاتٍ كثيرةٍ منَ الرُّضوضِ والكُسور .

٢

ومرَّتِ الأيَّام ، وذاتَ يومٍ من عامِ ١٦٣٨ ، قامَ صبىٌّ آخرُ من أمريكا الجنوبيَّة ، بتَحقيقِ مُعجزَةٍ جَديدة ، من مُعجزاتِ الله فى خَلْقِه .

كانَ حاكمُ بيرو ، الكونت « سِينكونا » ، يأمرُ رِجالَه بَجلْدِ بعضِ سُجنائِه منَ الهُنودِ الحُمر ، جزاءَ تمرُّدِهم عليه ، إذ دخَلَ عليهِ ابنُه الصَّغير ، وهمَسَ فى أُذُنِه :

ــ إنَّ أُمِّى مَريضةٌ جدّا ، قد أَصابتْها الحُمَّى ،

وهى فى حالةٍ يُرْثَى لها ، تَصْرُخُ وتَهتِفُ باسْمِكَ .

غادرَ « سينكونا » المكان ، وسارَعَ إلى زوجتِه فوجدَها ترتعِشُ وتصرُخُ منَ الألمِ ، وتطلُبُ أن يَضعوا عليها مزيدًا منَ الأَغْطيةِ الصُّوفيَّة ، إذْ أنَّها ترتَجِفُ من شِدَّةِ البَرد . جسَّ « سينكونا » جَبهةَ زوجَتِه ويَدَيْها ، فوجدَها ساخِنَةً جدًا ، فعجِبَ كيفَ تشكو منَ البرد ، وهيَ بهذهِ الحَرارةِ المُرتَفِعَة .

وجاءَ كلُّ الأَطِبَّاءِ الموجودينَ فى بيرو ، لِيُعالجوا زوجَةَ حاكِمِهم المَريضة ، وفَحَصوا عنْها فحصًا دَقيقا ، ولكنَّهم وقَعوا فى حَيْرةٍ شَديدة ، وراحوا يتهامَسونَ فيمَا بينَهم ، فهم أمامَ حالَةٍ غَريبةٍ منَ الحُمَّى ، لم تُصادفْهُم من قبل ، وعَلَّلوا الأمرَ بأنَّهُ قد يكونُ نزْلةَ برْدٍ شَديدة ، وبَدءوا يُعالجونَ المَريضةَ على هذا الأَساس .

ومرَّتِ الأيَّامُ تِلْوَ الأيَّام ، وحالةُ المَريضةِ تزْدادُ

سوءا ، فهىَ لا تكُفُّ عنِ الصُّراخِ من الألَم ، ومن الرَّجْفةِ الّتى أصابَتْها ، وازدادَ نُحولُ جِسمِها ، وأيقنَ الحاكـمُ من هَلاكِهـا . فاستدعَـى الأطِبَّـاءَ وصرخَ فيهم :

ـــ افعلوا أىَّ شىءَ أيُّها الأطِبَّاء . أينَ عقاقيرُكم ، وأينَ خِبرُتكم ؟ أَنقِذوا زوجتى المِسكينةَ من آلامِها .

ووقفَ الأطِبَّاء حائِرين ، فقدْ عجَزوا عنْ شِفائها ، وحاروا فى نوْعِ الحُمَّى الغَريبَة الّتى أصابَتْها

* * *

وفى هذهِ الأثْناء ، قفزَ فوقَ سُورِ القَصْرِ صبىٌّ هنِدىٌّ صغيـر ، فأمسكَ به الحُرَّاس ودفعوهْ إلـى السِّجن ، ولكنَّه صرخ يطلبُ مقابلةَ الحاكم ، فهو إنَّما جاءَ ليَشفى زَوجتَه المَريضة .

وضحِكَ منه الحُرَّاس ، وساقوهُ أمامَهـم بقَسوةٍ شَديدة . وسمِعَ الحاكـمُ الضَّجَّة ، واستـفسرَ عنِ

الأمرِ ، وعلِمَ بما قالَه الصَّبىُّ الصَّغير ، فطلبَ إحضارَه ، وسألَهُ ساخِرا :

ـــ هل جئتَ حقًّا يا صغيرى ، لتَشفى زوْجتى الَّتى عجَزَ كلُّ أطبَّاءِ بيرو عن شِفائَها ؟

أجابَ الصَّبىُّ الهِندىُّ فى شَجاعة :

ـــ لا تسخَرْ منِّى يا سيِّدى الحاكم ، فهذه الحُمَّى منتَشرةٌ بيننا معْشرَ الهنود ، وقد عرَفنا دواءَها من قديم ، ولم يمتْ بها أحدٌ منَّا بفضلِ علاجِنا السَّريعِ لها . وما عليكَ إلَّا أنْ تُجرِّبَ دَوائى ، فإنْ فشِلتُ فى علاجِ زوجتكَ ، فاقتُلْنى أو افعلْ بى ما تشاء .

أُعجبَ الحاكمُ بشجاعةِ الصَّبىّ ، وقال له :

ـــ إنَّنا لن نخسرَ شيئًا من التَّجربة ، ولكنَّكَ أنتَ يا صغيرى قد تخسرُ حياتَك . فهيَّا أرِنا دواءَك .

أجابَ الصَّبىُّ فى برود :

ـــ ليسَ معى دواء ، ولكنِّى أعمَلُ بقُوَّةِ السِّحرِ



وبَرَكةِ البَخور . كما أنَّ لى شرطًا هامًا ..

فصاحَ الحاكمُ فى غضب :

ــ ألَمْ أقلْ إنَّك جئتَ تسخَرُ منّى ؟ أىُّ سحْرٍ يا فتى ؟ ، وعن أىِّ شرطٍ تَتحدَّث ؟

أجابَ الصَّبىُّ فى هُدوء :

ــ استمِعْ إلىَّ يا سيِّدى الحاكم ، سواءً أاقتنعتَ بسحْرِنا أم لم تقتنعْ ، فشفاءُ زوجتِك رهنٌ بقَبولكَ لما أقول ، والشَّرْطُ سهل ..

كان الحاكمُ يعرِفُ مقدِرةَ هُنودِ أمريكا الجنوبيَّة ، علىَ شفاءِ بعضِ الأمراض ، فسأل :

ــ وما هو شرطُك يا صَغيرى الشُّجاع ؟

أجابَ الصَّبىّ :

ــ إنَّ أبى سجينٌ عندَك ، فعليكَ أن تُطلقَ سراحَه فوْرا ، وسراحَ بعضِ أفرادِ قَبيلتِه السُّجناءِ عندَك ، قبلَ بدءِ العِلاج .

تعجَّبَ حاكمُ بيرو من جُرأةِ الصَّبىّ ، وأُعجبَ بشجاعَتِه ، وبتَّ فى الأمرِ بسُرعة ، لا سيَّما وقد شعَر برجفةٍ تسرِى فى جسمِه ، وألمٍ حادٍّ يعَصِرُه ، فقد خشِىَ أن يكونَ أُصيبَ بالحُمَّى كزوجتِه ، فصاحَ فى قُوَّة :

ـــ لكَ ما تُريد ، إلَّا أنَّ لى ـــ كذلك شَرْطا .

سألَ الصَّبىّ :

ـــ وما هو يا سيِّدى ؟

قال الحاكم :

ـــ سأعفو عن كلِّ الهنودِ المَسجونين ، إنْ أنتَ أطلعَتنى على سرِّ دوائكَ السِّحرىّ .

قالَ الصبىُّ فرِحا :

ـــ لكَ ما تريد ، على أنْ تُنفِذَ أنت وعدَك أوَّلا .

فأمرَ الحاكمُ ـــ لدهشةِ الجميع ـــ بإطلاقِ سراحِ المساجينِ الهنود .

وأخرجَ الصَّبىُّ من جيبِه ، بعضَ قُشورِ الأشجار ، وقال للحاكم :

ـــ هذه قشورُ الشّجرة الّتى نُقدِّسُها ، وأَستطيعُ أن أَدُلَّكَ على مكانِها . وما عليكَ إلّا أن تنقَعَ هذهِ القُشورَ فى الماءِ أربعًا وعشرينَ ساعة ، ثمَّ تشربُها المريضةُ فى الصَّباحِ الباكر . وعندَ المَساءِ ـــ بإذن الله ـــ يُطردُ شيطانُ الحُمَّى من جسمِ المَريضة ـــ إذا أنتَ أطلقتَ هذا البَخور ـــ كذلِك ـــ مع تَناوُلِ العِلاج . والآنَ هل تسمحونَ لى أن أنصرف ؟

تناولَ الحاكمُ قشورَ الشّجرةِ المُقدَّسة ، بعدَ أن دلَّه الصَّبىُّ على مكانِها ، ووصفَ له شكلَها ، وانصرَف .

وألقَى الحاكمُ بالبَخور جانبا ، فهوَ يعلمُ جيِّدًا أنَّ السِّحر والخُرافاتِ لا تَشفى الأَمراض ، وأنَّ الله سُبحانه وتعالَى قد وضعَ الشِّفاء فى الدَّواء . فكما خلقَ

الدّاء خلقَ له الدَّواء . ونقعَ الحاكمُ القُشور ، وهو يدعو الله أن يكونَ الصَّبىُّ صادقا .

وفى صباحِ اليومِ التّالى ، شرِبَ الحاكمُ وشرِبتْ زوجتُه من منقوعِ القُشور ، وكانَ شديدَ المَرارة غيرَ مُستَساغ ، ولـم يمضِ يومٌ وليلـة ، إلّا واستعـادتِ المريضةُ نشاطَها وحَيويَّتَها . وما هى إلا أيّامٌ قليلة ، حتَّى شُفيا منَ الحُمَّى تَماما . استمرَّ الحاكمُ وزوجتُه على العِلاجِ بضعةَ أيّام ، لا سيَّما بعدَ أنْ عرفَ الحاكمُ مكانَ الشَّجرةِ المقُدسة ، وأُطلقَ عليها فيما بعد ، اسمُ الحاكمِ نفسِه ، فسُمّيَت « شجرةَ السِّينكونا » نسبةً إليه ، ومنها أُخذَ فيما بعد دواءُ « الكينين » ، الدَّواءُ المعروفُ لعلاجِ حُمَّى الملاريا ، الَّتى أصابتْ زوجةَ الحاكم .

وكانَ لهذا الحاكمِ الفضلُ فى الإكثارِ من زراعةِ هذه الشَّجرة ، والعنايةِ بها . حيثُ أفادَ العالَمُ فيما بعد

منَ هذا الدَّواءِ الجديد ، لعلاجِ حُمَّى الملاريا ، الَّتى تنشأُ عن جراثيمَ يحمِلُها فى خُرطومِه نوعٌ من البَعوض ، فعِندما يعَضُّ الإنسانَ ليمُصَّ دمَه ، يُفرِزُ فى جسمِهِ هذه الجَراثيم ، فتنتقلُ إليه عَدوَى الملاريا .

وتمضى الأيَّامُ والسِّنون ، والإنسانُ على عهدِه من ملايينِ السِّنين ، يُحارِبُ جراثيمَ الأمراض ، فهو فى كفاحِه من أجلِ البَقاء ، يُحارِبُ الأمراض ليقضىَ عليها ، أو ليُخفِّفَ من آلامِها قدرَ استطاعته ، بما يتيحُهُ له العِلمُ من وسائِلِ العِلاج .

٣

كانَ الرُّومانُ وأهلُ الإسكَندَريَّة منذُ عهدٍ بَعيد ، يجُرونَ بعضَ العملِيَّاتِ الجِراحيَّة ، ويستَعملونَ فى ذلك نباتًا مُخدِّرًا اسمُه « المنداجورا » .

وحكايتُنا هذه المرَّة ، حدثتْ فى سنَةِ ١٨١١ م ،

عندما وُلِدَ الطِّفلُ « جيمس سيمسون » فى قريَةِ « بيكر » بأُسكتلندة .. وُلِدَ فى أُسرةٍ فقيرة ، قرَّرتْ أنْ تعلِّمَ ولدَها الطِّبَّ .

وشبَّ الفتَى معَ الأيَّام ، ودخلَ إلى عالَمِ الطِّبِّ ، وسَرعانَ ما تفوَّقَ على زُملائِه ، وحقَّق آمالَ والِدِه وأشِقَّائِه الفُقراء ، الَّذينَ ضَحُّوا بكلِّ ما يملِكون ، رغم فقرِهم الشَّديد ، فى سبيلِ تعليمه . وشقَّ

« سيمسون » طريقَه في عالَمِ الطِّبِّ ، فطافَ بعد تخرُّجِه بمُعظمِ المُستشفياتِ ليكتسبَ الخبرة ، الَّتي تُؤهِّلُه لمُمارسةِ مِهنَتِه . وبذلك استطاعَ في فترةٍ وَجيزة ، أن يُصبحَ من أشهرِ أَطِبَّاءِ إنجلترا . وكان يتردَّدُ كثيرا على أَلسِنةِ النَّاس :

ـــ نحنُ مَدينونُ بسعادَتِنا ! « سيمسون » فقدْ أنقذَ حياةَ عائلِنا الوحيد .

أو يقولُ غيرُهم :

ـــ لقد رَدَدْتَ إلَيَّ حياتي ، وخفَّفتَ آلامي .

ورغمَ ذلك لم يستطعْ « جيمس سيمسون » ، أنْ يُخفِّفَ آلامَ أَقربِ النَّاسِ إليه ، فقدَ قاسَى أخوهُ أشدَّ الآلام ، ولم يملِكْ أن يصنعَ له شيْئا .

وفي تِلك الأثناء ، سنة ١٨٦٤ ، حاولَ أحدُ أطبَّاءِ الأسنانِ ، أن يَستعملَ في تَخديرِ المرضَى ، حتَّى لا يشعُروا بآلامِ خَلْعِ أسْنانِهم ، غازًا يُسمَّى « أُكسيدَ

النّتروز » . ولكنَّ نجاحَه كان مَحدودا ، ودأبَ العُلماءُ على استِعمالِ ذلك المُخدِّر ، فى تَخفيفِ آلامِ البَشر .

وراحَ « جيمس سيمسون » يُجرِّبُ ذلكَ المُخدِّرَ فى تخفيفِ آلامِ أخيه ، من دائهِ المُستَعصى .. داءِ السَّرطانِ الرَّهيب .

ولكنْ دونَ جَدْوى ، فقد ماتَ أخوهُ وهو يصرخُ من آلامِه ، ولم يَستطعْ « سيمسون » أنْ يخفِّفَ عنهُ آلامَ الجِراحةِ الَّتى أُجريتْ له ، لاستِئصالِ أورامِه .

ونذرَ « سيمسون » نفسَه ، منذُ تلكَ الحادثة ، للانفرادِ بنفسِه ، وعكفَ على الدِّراسةِ فى غُرفتِه ، وعزمَ علَى ألّا يُغادرَها إلّا إذا توصَّلَ لاكتشافِ مادَّة ، تُريحُ المريضَ من آلامِ الجِراحةِ المُبرِّحة .

وذاتَ يوم ، قالَ له الصَّيدلىُّ الَّذى يتعاملُ معه :

ــ اسمعْ يا سيمسون : لقدأخذتَ منّى أكثرَ من

مِائةٍ وخمسينَ مَادَّةً كيميائِيَّة ، وإنِّى أخشَى عليكَ من تفاعُلاتِها ، إذا امتزجَ بعضُها ببعض .

فأجابَه سيمسون فى هدوء :

ــ استمعْ أنتَ إلىّ .. فسأَستمِرُّ فى إجراءِ تجاربى حتَّى أنجحَ بإذنِ الله ، أو يحترقَ بى المكان ، بكلّ ما فيه من موادَّ كيماويَّة .

وذاتَ يومٍ ، وبناءً على إلحاحٍ شديد ، خرجَ سيمسون من معمَلِه ليفحَصَ عن مريضٍ جاءهُ يصرُخُ منَ الألم ، بعد أن تركَ اثنَين من مُساعديه ، يوُاصلانِ إجراءَ التَّجاربِ الَّتى كلَّفهُما بها .

وعبثَ أحدُ المُساعدَيْن بقارورة ، كانَ سيمسون قد مزجَ فيها بعضَ المَوادِّ ليجُرِىَ عليها تجارِبَه ، فسقطتْ القارورةُ على الأرض ، وانتشرتْ رائحتُها فى المكان ، فإذا المساعدانِ ينامانِ على الفَوْر ، نومًا عميقا .



وأسرعَ الخادمُ الّذى يعملُ عندَ سيمسون ، فطرقَ عليه بابَ حُجرةِ الكشفِ فى العِيادة ، وقال له وهو مفزوع :

ــ سيِّدى .. لقدْ نامَ مُساعداكَ على الأرضِ فى المعمَلِ ، وهُما يهذِيان بكلامٍ غيرِ مفهوم .

غادر سيمسون العيادةَ مُسرعًا إلى معمَلِه ، حيثُ وجدَ مساعِدَيه يغُطّانِ فى نومٍ عَميق ، ويَصيحانِ بكلامٍ مَدْغوم ، فصاحَ مذْهوشا :

ــ غريبٌ أمرُهما ! ولكنَّ المكانَ يعِجُّ برائحةٍ نفَّاذة .. سأفحصُ عنِ الأمر ..

وتناولَ القارورةَ المُنسَكِبَة ، وكانَ بها بقايا منَ المزيج ، فصبَّها على يدِه وشمَّها مُتَفحِّصا ، وإنْ هى إلّا لحظات ، حتَّى نامَ بجوارِ مُساعِدَيْه .

ونظرَ الخادمُ مشدوها ، عندَما رأى سيِّدَه « سيمسون » يرقدُ بجوارِ مُساعِدَيْه ، ويَهذى

مثلَهُما .

وعندَما أَفاق « جيمس سيمسون » أسرع باستحضارِ مَزيدٍ من تلك المادَّة ، وهو يصيحُ فَرِحا :

ــ الحمدُ لله ، فقدْ نَجحتْ تجارِبُنا ، وتوصَّلْنا لاكتشافِ مادَّةِ « الكلوروفورْم » .

فعلَّق مُسَاعِدُهُ ضاحِكا :

ــ إنَّها مادَّة عَجيبة ، خدَّرتْنا وحملتْنا إلى عالَمِ الأحلام ، فى دقائق ..

ونجحَ استخدام « الكلوروفورم » فى التَّخدير ، واستعمَلَهُ « جيمس سيمسون » فى جراحاتِه ، وشاعَ ذكرُه فى العالَمِ أجمع ، بعد أن طافَ « سيمسون » فى كلِّ مكان ، يُلقى المحاضراتِ عن فوائدِ التَّخدير بالكلوروفوم .

وداهمَ « جيمس سيمسون » مرضٌ طويلٌ قاس ، ومات فى الثامنةِ والخمسينَ من عُمرِهِ ، فخلَّدهُ

العالَم ، وأُقيمَ له تِمثالٌ نُقِشتْ عليه هذه العبارة :

« باركَ اللهُ فيمن كانتْ عبقرِيَّتُه وعطفُه ، تَخفيفًا عمَّن يُقاسونَ العذاب »

لقد مضَى « سيمسون » كغيرِه منَ البَشر ، ولكنْ بعد أن وضعَ الأساسَ لمن جاءوا بعده ، ليُطوِّروا استعمالَ التَّخدير ، حتَّى وصل إلى ما وصلَ إليهِ من النَّجاح .

٤

وفي باريسَ سنة ١٨١٦ ، أىْ بعد خمْسٍ سنواتٍ من مَولِدِ « سيمسون » ، كان الطّبيبُ « لينيك » الّذى اشتهرَ بحيائِه الشّديد ، يجلسُ فى حدائقِ اللُّوفْر ، يُفكّر فى أُمورِ عيادتِه ومَرضاه ، وكيفَ أنّه يُضطَرُّ إلى وضعِ أُذنِهِ على صُدورِ مرضاه ، لِيتسَمّعَ إلى نَبَضاتِ قُلوبهم ، حيثُ لم تكنْ توجدُ أداةٌ طبّيّة ، لِمعَرفَةِ هذه النّبَضات .

ولمّا كان من المُحتملِ أنْ تنتقلَ إليه ، منْ جرّاءِ ذلك ، عدوَى بعضِ الأَمراض ، فضلاً عن حيائِه الشّديدِ من عملِ ذلك ، لا سيّما وأنّ أكثرَ مرضاهُ من النّساء ، فقد كان يُفكّرُ فى وسيلةٍ يَكشفُ بها على مَرْضاه ، دونَ أن يُضطرَّ إلىَ وضع أُذنِه مُباشرةً على صُدورِهم .

وخطَرَتْ له فكرةُ أن يضعَ فوهَةَ أُنبوبةٍ من الورقِ المقوَّى فوقَ صدرِ المَريض ، ويضعَ أُذنَه على فوْهَتِها البعيدة ويَتسمَّعَ إلى نبضاتِ قلبِه ، ولكنَّ الفكرةَ لم يُقدَّرْ لها النَّجاح .

وفيما هو يفكّر فى الأَمر ، وبعضُ الأَطفالِ يلعبونَ حولَه فى الحديقة ، إذ لاحظ أنَّ أَحدَهم يُمسكُ عصًا صغيرَةً فى يَدِه ، ويُلصِقُ أحدَ طرَفَيْها بأُذُنِه ، بينما يُحكُّ طِفلٌ آخر ، عَلَى طَرَفِها البعيدِ بسنِّ مِسمار فيصيحُ الطِّفلُ الأَوَّلُ مسرورا :

ــ إنّى أسمعُ حكَّ المِسمارِ بوُضوح .

وأَعجبتِ الفكرةُ الدُّكتورَ « لينيك » ، فقفزَ من مكانِه ، واتَّجهَ نحوَ الأَطفال ، واستأْذنَهم أن يُشارِكَهم فى لَعِبَتِهم الطَّريفة . فرحَّبَ به الأَطفال ، ووضعَ أحدُهم طرَفَ العصا على أُذنِ « لينيك » ، وحكَّ علَى طرَفِها الآخرِ بمِسمار ، فسَمِع لينيك صوتَ



حكَّ المسمار واضحا ، فصاحَ بينَ دهشةِ الأطفال :

ــ حمدًا لله ، فقد وجدتُها أخيرا .

وجرَى مُسرعا إلى عِيادته ، حيثَ صنعَ سمَّاعةً خشبيَّةً مجوَّفة ، راحَ يسمعُ بها نبضاتِ قُلوبِ مرضاه ، بأنْ يضعَ أحدَ طرفيْها على صدرِ المريض ، ويضعَ أُذُنَه على طرَفِها الآخر ، فيسمعَ نبضاتِ قلبِ المريضِ واضحة . دونَ حاجةٍ إلى وضْعِ أُذُنِه على صدرِه ، وتعرُّضِه للحَرَج .

وهكذا كانتْ بدايةَ السَّمّاعةِ الطِّبيَّة .. سمّاعةِ الطَّبيب الَّتى نراهُ الآنَ يضعُها على قُلوبِ مرضاه .

وضعَ بدايتَها « لينيك » ، وجاء آخرونَ بعده فطوَّروها ، حتَّى وصلتْ إلَى ما هى عليه الآن .

٥

وفى كندا ، فى السَّادس من يونية سنة ١٨٢٢ ، كانَ الصَّيَّادُ الكَنَدِىّ « أليكس سان مارتن » يصطاد بعض الحيوان ، إذ انطلقتْ رَصاصةٌ خاطئة ، من بندُقيَّةِ أحِد زملائِه ، واستقرَّتْ فى بطنِه ، فأسرعَ زُملاؤه يستدعونَ أقربَ طبيب .

وجاءَ الطَّبيب ، وكان يُدعى « وليم بومون » وفحصَ عنِ الصَّيَّاد . فوجدَ أنَّ الرَّصاصةَ اخترقتْ جِدارَ البطن ، وأحدثتْ فيهِ فتحةً كَبيرة ، وكذلكَ أحدَثتْ فتحةً فى جِدار المَعِدَة .

وقرَّرَ الطَّبيبُ أنَّ المُصابَ لنْ يعيشَ طويلا ، ونقلَه إلى عِيادتِه ، ليُخفِّفَ من آلامِهِ حتَّى يَموت . ولكنَّه فى اليومِ التالى وجدَه لا يزالُ حيّا ، إذْ كانَ الرَّجلُ يتمتَّع

بِبِنْيةٍ قويَّة ، وصحَّةٍ خارقَة ، فأدهشَهُ ذلك ، وراح يهتَمُّ بالرُّجلِ ويعتنى به ، ليبُقى على حياتِه .. راحَ يُغذِّيه بالمَحاليل ، ويضمِّدُ جِراحَه ، حتَّى شُفِىَ تماما .

ولكنَّ أغربَ ما فى الأمر ، أن جُرْحَ البَطنِ التأم على حاله ، تارِكاً فَتحه ، على حافَتِها قطعةٌ حَيـةٌ مُلتئمةٌ من لحمِه كأنَّها مِصراعُ النَّافِذَة ، تظهرُ من خلالِها أمعاؤه كلُّها . وكذلكَ تجويفُ المَعِدة ، لمْ يلتئمْ جُرحُه تماما ، وتعلَّقتْ فى حافتِه قِطعةٌ صغيرةٌ منَ الجِلد . وعاشَ الرَّجل ، هكذا طَوالَ حياتِه ، فلمْ يُؤثِّر ذلك على عملِيَّةِ الهضم ، وأصبحَ الصَّيَّـادُ « سان مارتِن » أُعجوبةَ عَصرِه ، ودليلاً حيًّا على قُدرةِ الله . بل إنَّ بعضَ النَّاسِ أَطلقوا عليه اسمَ « الميِّتِ الحَىّ » فلمْ يكن أحدٌ قطُّ موقِناً من شفائِه .

وخطرتْ لِلطَّبيب « وليم بومون » فكرةٌ جريئة .. لماذا لا يكونُ هو أوَّلَ طبيبٍ يُطِلُّ بنفسِه ، ويفحصُ

بعينِه المُجرَّدةِ عن مَعِدةِ إنسانٍ حىّ . ويراقبُ ما يجرى فيها ثانيةً بثانِية ، ودَقيقةً بدَقيقة .

واتَّفقَ مع الصَّيادِ على ذلك ، وعاشَ معه وعاشَره عشرَ سنواتٍ كاملة ، سجَّل فيها الطَّبيب كلَّ شيءٍ عن المَعِدة ، فى كتابٍ أصبحَ هو المرجِعَ الأساسىَّ للطِّبِّ الباطنىّ ، وما زالَ يُعتمدُ عليه فى دراسةِ الطِّبِّ حتى الآن .

وتاريخُ حربِ الإنسانِ ضدَّ المرض ، تاريخٌ طويل .. ومن أحدثِ وقائعِ هذه الحرب ، استعمالُ المُضادَّاتِ الحَيَويَّة ، ومركَّباتِ السَّلفا ، الَّتى تقضِى اليوْمَ على العديدِ منَ الجراثيمِ المُخطِرة ، الَّتى تنشأُ عنها أمراضٌ كثيرة .

ففى سنة ١٩٠٤ ، اكتشفَ الطَّبيبُ الألمانىُّ « بول أيرلنج » أنَّ إحدَى موادِّ التَّلوين الحمراء ، تقتُلُ الجَراثيمَ فى جسمِ فأرٍ من فئرانِ التَّجارب ، دونَ أن تُؤثِّر على حياةِ الفأرِ نفسِه .

وتلا ذلك أنْ أجرَى عالِمٌ ألمانىٌّ آخر ، اسمه « جيرهارد دوماك » تجارِبَه على الفِئران ، مُكْمِلاً تجاربَ « بول أيرلنج » وأعلنَ أنَّه توصَّلَ إلى اكتشافِ أنْ إحدَى مُركَّباتِ « السلفونامايد » تُفرز مادَّةً فى

الـجسم ، تَتغـذّى عليهـا الجراثيـم ، فتمـوتُ فى الحال .

ولعلّنـا لو عرَفنـا شيئـا عن بكتِريـا الأمـــراض ، لاتّضحتْ لنا الصُّورةُ تماما :

فالبَكتريا خلايا حيَّة ، تنمو وتتكاثَرُ فى أنسجةِ الجسم ، وتمتصُّ غذاءَها منه ، وتُفرزُ سموما تُسبِّب الأَمراض . ولكنَّ الجسمَ لا يقفُ عاجزا فى مُواجهةِ هذه السُّموم ، فهو يدافعُ عن نفسِه ويُفرزُ ما يُسمَّى بالأَجسامِ المُضادَّة . الَّتى تتعاونُ مع كُرياتِ الـدَّمِ البَيضاء ، فى القضاءِ على البكتريا ، فتتعادل وآثارُ تلكَ السُّموم .

ولكنَّ البكتريا فى بعضِ الأحيان ، تتكاثَرُ بشِدَّة ، فتقتلُ كُرَياتِ الدَّمِ البيْضاء ، وتُلحقُ بالجِسمِ البَشَرِىِّ أضرارًا كَثيرة . ولولا ما يكشِفُ عنه العُلَماء ، لما استطعنا أن نتغلَّبَ عليها قطّ .

ففى سنة ١٩٢٨ بينَما كانَ العالِمِ « الكسندر فيلمنج » يقومُ بإحدَى تجارِبه ، لتربيَةِ نوعٍ من البَكتريا فى طبقٍ صغير ، إذْ لاحظَ تكوُّنَ قُرصٍ صغيرٍ من الفِطْرِيّات (العفن) لونُه رَمادِىٌّ أخضر . وكانَ من المُمكنِ أن يُلقيَ بهذا الطبقِ فى القُمامة ، حيثُ لا يخدِمُ الغرضَ من تجربتِه ، ولكنَّه لاحظَ فى الطَّبقِ ظاهرةً بالغةَ الأهمِيَّة ، إذْ كان هذا الفِطرُ الغريب متكوِّنًا فى الطَّبق ، وحولَه دائرةٌ ليس بها أيَّةُ جُرثومة ، أمّا خارجَ الدّائرة ، فالجراثيمُ موجودة .

وأعادَ « فيلمنج » التَّجربةَ وقدِ استهواهُ الأمر . وبعدَ تجاربَ عديدة ، وجدَ أنَّ هذا العفنَ السِّحرىّ ، الذى أُطلقَ عليه فيما بعد اسم « البِنيسِلْيوم » ، يُنتجُ مادَّةً لها قُدرةٌ خارقةٌ على إيقافِ نُمُوِّ الجراثيم .

ولمّا كان اسمُ هذا العفنِ السِّحرىّ « البِنيسلْيوم » فقد سُمِّيتِ المادَّةُ الَّتى يُنتِجُها « البنيسلين » .

وحاولَ «ألكسندر فيلمنج» إنتاجَ هذا الفطرِ العَجيب بكمِّيَّاتٍ كافية ، لعلاجِ الأمراضِ عند الإنسان ، ولكنَّه لم يستطِع .. إلى أنْ تمكَّن من ذلك سنة ١٩٤١ السيِّد « هوارى فلورى » هو وبعضُ زملائِه فى جامعة أُكسفورد .

وبعد تجاربَ عديدة ، اتَّضح أنَّ « البنيسلين » الَّذى ظنَّ النّاسُ أنه يقضِي على كلِّ أنواعِ الجَراثيمِ والبَكتِريا ، ليستْ له تلكَ القُوَّةُ السِّحريَّةُ الَّتى تخيَّلوها ، فهوَ يقضى على بعضِ الأنواعِ دونَ غيرها .

واستُأنِف البحثُ من جديد ، حتَّى توصَّلَ العلماءُ إلى اكتشافِ أنواعٍ عديدةٍ منَ العِلاج بالمُضادَّاتِ الحَيويَّة ، الَّتى يُقال لها « أنتى بَيوتيك » فأصبحَ فى وُسْعِ الأطبَّاءِ الآن ، أن يختاروا منها أكثرَها فاعِليَّة ، وأنسبهَا لنوعِ المرضِ الَّتى يرغبونَ فى علاجه .

ومع ذلك ، فلا يزالُ هناكَ مرضُ السَّرطانِ

الخَبيث ، يقفِونَ أمامَه عاجزينَ حتّى الآن ، ولكنّهم لا ييْأسون ، فقدْ نَجحوا في شفاءِ بعضِ حالاتِه .

وهكذا لا يزالُ الإنسانُ يحاولُ جاهدًا من أجلِ البقاء .. من أجلِ مُحاربةِ الأمراض .. من أجلِ حكايةٍ جَديدة تغيّرُ الدنيا .